الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر – باتنة –

قسم العلوم الإنسانية **شعبة التاريخ**

المحاضرة الثانية:

تطور الملكات الفكرية لدى إنسان ما قبل التاريخ

السنة الثانية

مقياس : تاريخ الأفكار

الأستاذ: بعيطيش عبد الحميد

السنة الجامعية: 2011 - 2012م

تمهيـد:

الإنسان مخلوق فريد له من المواهب ما يجعله منفردا بين الحيوانات، فهو على عكسها ليس شكلا داخل صورة الطبيعة انه يشكل صورة الطبيعة، وله في جسمه وعقله ما يجعله مستكشفا لها، ما يجعله حيوانا واسع المعرفة.

فكل الأنشطة الإنسانية ترجع – جزئيا– إلى أصولنا الحيوانية، إننا نصبح مخلوقات ضعيفة وحيدة لو أنا قطعنا صلتنا بتيار الحياة، ورغما عن ذلك فمن حقنا أن نبحث عن شيء يميزنا فيما يخص المواهب المادية التي يلزم أن يشارك الإنسان فيها الحيوان وعن المواهب التي تجعله مختلفا في ذلك.

إن البحث التاريخي في أصل النشأة الأولى للإنسان هو بحث في المجهول والغامض، فالنشأة الأولى للإنسان تغور في أعماق كون لا متناه من الطلاسم والأسرار، وكلما اشتد البحث الإنساني في طلب هذه الأسرار ازدادت هذه الأسرار غموضاً واشتدت فيها كثافة الأسرار، ومع ذلك كله فالإنسان مازال ماضياً في رحلة الكشف والبحث عن ماهية الإنسان وأسرار نشأته الأولى، ورغم الصعوبة الكبرى التي يواجهها الباحثون في مجال البحث عن تاريخ الإنسان الأول ومقتضيات وجوده فإنهم استطاعوا أن يكشفوا كثيراً من الحقائق وأن يبسطوا مزيداً من الفرضيات الكاشفة في ميدان الأصول الأولى للإنسان.

تعد مسألة تحديد البدايات الأولى للجنس البشري قضية إستراتيجية مركزية في التاريخ الإنساني، ومع أهمية الدراسات التاريخية والأثرية التي تمركزت حول الكشف عن البدايات الأولى لظهور الإنسان على سطح المعمورة إلا أن ميقات هذا الظهور وصيغته الأولى بقيت وستبقى من الأسرار الكبرى الدفينة في أعمال التاريخ.

وانطلاقا من هذه العلاقة فان هناك عدة تساؤلات تستوقفنا من أجل إبراز الملامح الفكرية للإنسان في فترة ما قبل التاريخ منها:

يترك كل حيوان من الآثار ما يدل على مكانه أما الإنسان فيترك آثار ما أبدعه.

- هناك مواهب كثيرة ينفرد بها الإنسان، ولكن محورها جميعا يكمن في القدرة على استنباط من لا يرى مما يرى.
- الفن والعلم كلاهما ينبعان من نفس الملكة الذهنية البشرية، وهي القدرة على تخيل المستقبل والتنبؤ بما قد يحد.
- أن الحضارة تضاعف الأفكار فكل أداة جديدة تسرع وتزيد من قوة غيرها
- أن الأخطاء مرتبطة بطبيعة المعرفة البشرية ارتباطا لا ينفصم.

ملامح الحياة الفكرية لإنسان ما قبل التاريخ

فمنذ أن انتشل الإنسان ذاته من غياهب اللامعرفة، انشغل بمسألة المعرفة، وهيمنت على انشغالاته أسئلة خاصة بماهية المعرفة، وبطرق اكتشافها أو بنائها، هل هي معرفة موضوعية؟ أم ذاتية؟ تجريبية أم ذهنية؟ والفكر المعرفي في إجابته عن تلك الأسئلة، نفي ذاته مرات ومرات، عبر سلسلة من القطائع والجدل، فالفكر المعرفي يتحرك وينسج حركته ومسارها، ويتشكل تاريخياً ويولد زمن تاريخه.

إن الإنسان بتساؤله عن أصله منذ آلاف السنين، لم يكن في متناول تفكيره إلا مبادئ مأخوذة من تعاليم دينية ومن مناهج فلسفية مختلفة، وكان عليه أن ينتظر العصر الحديث لكي تتوافر لديه معطيات ذات طابع مختلف مرتكزة على مصادر أخرى تتيح له التأمل في بداية البشرية.

فمنذ مليون سنة على الأقل اخذ الإنسان يجمع النباتات ويصطاد الحيوانات بشكل مميز، وليس لدينا تقريبا أية آثار باقية عن هذه الفترة الهائلة قبل التاريخ، تلك الفترة التي استمرت أطول بكثير من كل التاريخ المسجل، وكل ما وجده علماء الآثار عند نهاية هذه

الحقبة على حافة الغطاء الجليدي في كهوف مثل كهوف التاميرا (اسبانيا وفرنسا) هو تسجيل لما سيطر على ذهن هذا الرجل الصائد ومنه عرفنا عالمه وماذا كان يشغله.

روي انه لما وصل الإسبان إلى اليابسة على المحيط الهادي سنة 1769م، كان هنود كاليفورنيا يقولون انه عند اكتمال القمر تأتي الأسماك وترقص على تلك الشواطئ، والحقيقة أن هناك سلالة محلية من الأسماك تسمى (الجرانيون)، تخرج من الماء لتضع بيضها على الحدود الطبيعية لذروة المد، فتدفن الإناث نفسها في الرمل بالذيل أولا، وتدور الذكور من حولها لتخصيب البيض أثناء وضعه، وقد شكلت الملايين من سنوات التطور كي تتوافق الأسماك تماما مع مد البحر، لكن بالنسبة للإنسان فإن الطبيعة لم تشكل عائقا أمامه لكي يتوافق مع بيئة بذاتها، بل توافق مع كل البيئات، فخياله ومنطقه وحِدة ذكائه وخشونته كلها تجعله قادرا على ألا يقبل بيئته، بل قام بتغيير هذه السلسة بابتكاراته التي أعاد بها صياغة بيئته على مر العصور، هي ليست نوع من التطور البيولوجي وإنما هي تطور فكري حضاري.

منذ عشرون ألف سنة كان الإنسان في كل أجزاء العالم التي وصلها مجرد جامع للنباتات وصائد للحيوانات، وكانت أكثر براعاته الفنية والتقنية هي أن يلحق نفسه بقطيع حيوانات يتحرك، فما أن وصل إلى عشرة آلاف سنة من الآن حتى كان كل ذلك قد تغير وابتدأ الإنسان في بعض الأماكن في تدجين بعض الحيوانات ثم فيما بعد اخذ يزرع وينتج وهذا هو التطور الفكري الذي انبثقت عنه الحضارة.

فقد كان إنسان العصر الحجري القديم والعصر الحجري الويسط مهتما بالصيد وتربية الحيوانات، أما إنسان العصر الحجري الحديث فهو بالتأكيد الذي ابتدع حتى الزراعة منذ سبعة أو ثمانية آلاف سنة والتي أطلق عليها مرحلة التحول (transformation) الأول الكبير في حياة الإنسان من جامع للطعام إلى منتج،

وكشفت المرأة كيف يتحول نوع من الطين إلى الفخار وكيف يصنع الخبز بعد إضافة الخميرة، وكيف تستخرج المشروبات الروحية المخمرة من بعض الحبوب والثمار.

صدفة : حظ جيد وحظ سيئ

كان الإنسان البدائي صياد طعام، ويجب على نتائج الصيد أن تتغير، وهذا أعطى أصلاً أكيداً لتلك الخبرات التي فسَّرها الإنسان كحظ جيد وحظ سيئ، كان سوء البخت عاملاً عظيماً في معيشة النساء والرجال الذين عاشوا دائماً على الحد المُسنن لوجود مزعزع ومُزعج.

ركز الأفق الذهني المحدود للبدائي بالتركيز على الصدفة، بحيث أصبح الحظ عاملاً دائماً في حياته، كافح الأورينياسيون Aurignacien[1] البدائيون من أجل الوجود، ليس من أجل مستويات المعيشة؛ عاشوا معايش مخاطرة لعبت فيها الصدفة دوراً هاماً، الخوف الدائم من كارثة غير معروفة وغير منظورة تعلق فوق أولئك البدائيين كغيم يأس خسف بفعالية كل مسرة؛ عاشوا في خوف دائم من فعل شيء ما قد يُجلب لهم حظ سيئ.

تمسك الرعاة فيما بعد بذات الآراء عن الصدفة والحظ، بينما لا يزال فيما بعد كان المزارعون واعين بتزايد بأن المحصول متأثراً مباشرة بأشياء كثيرة كان فوقها الإنسان لديه تحكم قليل أو لا تحكم، وجد الفلاح ذاته ضحية لجفاف وطوفانات وبَرَد وعواصف وأوبئة وأمراض نبات، بالإضافة للسخونة والبرودة، وعندما أثَّرت كل تلك التأثيرات الطبيعية على بحبوحة الفرد، كانت تُعتبَر كحظ جيد أو حظ سيئ.

إن مسيرة تقدم الإنسان الأول في عالم كان عذريا بالكامل، لم تكن أبدا بالسهولة التي هي عليه حياتنا اليوم، فقد كان عليه أن يواصل كشف غموض بيئته بحذر، وان

[1] - من حضارات ما قبل التاريخ تعود إلى فترة العصر الحجري القديم الأوسط في حدود 22000 و 18000 ق.م

ينجح و هو الأضعف من بين كل شركائه الآخرين– من الكائنات– في إيجاد الملجأ و الطعام و حاجاته الحيوية في عالم مفتوحة أبوابه على كل أشكال الصراع.

العقلية البدائية: (Pensee Sauvage)

في إطار تحليله للعقلية البدائية يرى ليفي برول **(Lévy- Bruhl)**[1] أن هذه العقلية تقع تحت تأثير تصورات بوجود قوى خارقة فوق طبيعية توجه الحياة وتحرك صيرورة الوجود، حيث تأخذ التجربة عند أفراد هذه الجماعات طابعاً أسطورياً: فالحقيقة تؤخذ على أنها تنبع من الإيمان بوجود قوى وتأثيرات مجهولة خفية نابعة من عوالم عليا بعيدة متوغلة في القدم. وهذه التصورات الأسطورية تتكامل فيما بينها بصورة تختلف عن المنطق الذي نعرفه في العصور الحديثة، وعلى أساس هذه التصور يستند ليفي برول في تسمية العقلية البدائية بـ "العقلية ما قبل منطقية (Prelogique Mentalite)، وهذا يعني أن هذه العقلية تتوافق مع مرحلة سابقة للتفكير المنطقي، بحيث يمكنها أن توائم بين التناقضات المفارقة والتي تتنافر كلياً مع طريقتنا المعاصرة في التفكير، وهذا يعني أنها تشكل طريقة أخرى في التفكير والنظر. ووفقاً لمنطق هذه العقلية فإن الأشياء يمكن أن تكون هي نفسها وهي غيرها في الآن الواحد، فالرجل في بعض القبائل الهندية القديمة (بورورو BORORO) يعتقد في الآن الواحد أنه رجل وببغاء، وذلك لأنه يشارك في طبيعة هذا الحيوان بوصفه توتما "Totem" لوجود الخاص، وتأسيساً على هذا المبدأ فإن العقلية البدائية أقل قدرة من عقليتنا نحن المعاصرين على إجراء التحليل والتجريد وبناء المفاهيم.

ومن هذا المنطلق فإن عالم البدائيين عالم أسطوري تحكمه قوى فوق طبيعة (Sur naturelle-)، فالرجل البدائي لا يستطيع أن يفكر كفرد خارج دائرة الجماعية التي ينتسب إليها، وهو لا يستطيع أن يرى نفسه خارج دائرة الأشياء التي يملكها، مثل الأشياء

[1] - عالم اجتماع فرنسي من بين كتبه (العقلية العلمية والعقلية البدائية)

الشخصية، كثيابه وآثار أقدامه، فهي جزء منه وتدخل في بنية هويته، وعلى أساس ذلك يعتمد البدائي عمليات سحرية مؤسسة على هذه العلاقة، وهي عمليات لا تفهم إلا إذا اعتبرنا أن التفكير البدائي مختلف كلياً عن مبدأ تفكيرنا.

فالتأثير الانفعالي للقوى ما فوق طبيعية يوجد في أصل التطور الأسطوري وهو نفسه الذي يوقظ التجارب الخاصة ويحيها، ولاسيما هذه الشاذة فيها مثل تجربة الموت والأحلام والرؤى الأسطورية، وهي هذه التي تضع الإنسان البدائي في علاقة مع القوى الخارقة، وفي ظل هذه التجربة الأسطورية تتكون صيغة وعي جمعي قوامه نسق متكامل من الرموز والأساطير والطقوس، ولذلك فإن الإنسان البدائي لا يستطيع أن يدرك العالم بالطريقة التي ننهجها نحن، بل يدرك العالم عبر نسق من الفعاليات التي تأخذ طابعاً ذهنياً وعاطفياً سحرياً في آن واحد، فتجربة البدائيين تتكون عبر المعاناة الأسطورية وبطريقة حدسية. وبالتالي فإن منظومتهم الأسطورية ليست نتاجاً لتجربة عقلية بل هي نتاج لمركبات انفعالية ووجدانية.

وبالتالي فإن دور المنظومات الأسطورية لا يقف عند حدود تفسير الظواهر الطبيعية فحسب، إذ يتجلى بوصفه مشاركة وجدانية تأخذ صورة ردود فعل إزاء الخوارق الطبيعية، وتلك هي الطريقة التي يجب علينا أن نعتمدها لفهم الطقوس والرموز والمفاهيم التي تعود إلى العقلية البدائية.

ومع ذلك إذا كان التطور نحو العقلية المعاصرة قد تحقق وأخذ مجراه فإن تفكير الإنسان لا يأخذ الطابع المنطقي بصورة كلية وذلك لأن العناصر الانفعالية لن تختفي أبداً في بنية التفكير العقلاني المعاصر، ويضاف إلى ذلك كله أن العقلية الأسطورية لا تحجب عن الإنسان إمكانية التفكير والتطور العقلي المنطقي على نحو كلي، وهذا يعني أن العقلية الأسطورية تعيق التطور العقلاني ولكنها لا تمنعه بصورة كلية.

فالإنسان يرتقي عن طريق اكتشاف ثراء مواهبه (ملكاته وقدراته) وأما ما يخلفه في طريقه فهي معالم متوارثة أي (معالم فكر لا يشيخ) على حد تعبير احد الشعراء، فثمة أفكار تتجه مباشرة إلى الوجود الإنساني في محاولة لفهم معناه أو تفسير قيمة أو تعديل اتجاهه أو تبسيط صيغة أو إثراء وضعه أو إغناء حاله أو غير ذلك مما يستهدف صميم الوجود.

كان العقل البدائي منطقياً لكن احتوى فِكَرات قليلة من أجل صِلة ذكية، فوجد نفسه في عالم لا يفهمه فليس لديه خبرات كثيرة يعول عليها، فخاف أن ينقلب عليه هذا العالم فلا تشرق الشمس في يوم ما أو لا تمطر السماء، فبدلا من أن يفهم طبيعة هذا العالم الذي حوله تقرب إليه و ملأه بالأشباح و الآلهة الصغيرة و الكبيرة و عبدها لكي ترضى عنه و تستقيم حياته و لم يكن ذلك قاصرا على البدائيين بل حتى كبار الفلاسفة أمثال (طاليس المليتي 546-640 ق.م) آمن بأن كل الأشياء عامرة بالآلهة.

الخيال في فن الكهوف

الراجح أن الإنسان الأول كان قبل أن يستطيع الكلام يرى الأشياء واضحة بينة، فيقلد ما يرى بغاية المهارة ويأتي بالحركات والإيماءات، وما إن اخذ الكلام يتطور حتى شرع في هاته الإحساسات الجوهرية واخذ ينظمها ويستوعبها وجسد بعضا منها في شكل رسومات جدارية .

إن أول ما يثير العجب هو أن يكون هذا الفن المفعم بالحيوية البادئ في نقوش الكهوف فنا ناشئا وان يكون بهذه الندرة، لماذا لم توجد آثارا أكثر عن العصور الذهنية التخيلية للإنسان كما هو الحال بالنسبة لأثار ابتكاراته.

لو أعدنا النظر لأدركنا أن الإنسان ضعيف اعزل بطئ الفهم تعوزه الرشاقة، ويلزمه أن يبتكر حجر الصوان والسكين والرمح لكي يستعملها في حياته كأداة وكسلاح،

ورسوماته الصخرية بالنسبة لنا تعيد تمثيل طريقة الصائد في الحياة كلمحة من التاريخ، فهي تحوّل الذّهن مما هو مرئي إلى ما يمكن استنباطه أو تخمينه، فهو بذلك يعبر عن ذاته تعبيرا غير مباشر، يظهر فيما يسمى بالفنون التشكيلية كالنحت والرسم، وهو بذلك يخلخل الضغط النفسي في اتجاهات فنية ترهف من الحس وتصف بالذوق دون أن تنقل إلى غيره إحساساته الحقيقية أثناء أداء العمل الفني.

فالصورة المسطحة بكل ما تحمله من قوة الملاحظة لا تعني شيئا للعين، لأن الذهن يضفي التجسيد والحركة إنها توصلنا إلى الحقيقة عن طريق الاستدلال، فنحن لا نرى الحقيقة فيها ولكننا نتصورها.

الفن والعلم كلاهما نشاطان إنسانيان متفردان يقعان خارج نطاق كل ما يمكن للحيوان عمله، وهنا سنلحظ أنهما ينبعان من نفس الملكة الذهنية البشرية وهي القدرة على تخيل المستقبل والتنبؤ بما قد يحدث ثم التخطيط مستقبلا له.

إن غياب كل أنواع التقاليد الكتابية أو الشفهية المتعلقة بالآثار والمواقع يضع علم ما قبل التاريخ في إطار لا يمكنه من متابعة سرد الأحداث التي حصلت، وليس لدينا في أفضل الحالات إلا تلمّس نمط الحياة والتقنيات المميزة، ومن جهة أخرى فإذا كنا نجهل الأحداث التي أثرت على الحياة الفكرية لجماعات ما قبل التاريخ، فإن مساحة الموقع ومكان تأسيسه وطبيعة مختلف أجزائه المكونة يمكن أن تعطينا مؤشرات حول تركيبة الجماعة التي سكنته وبنيتها الاجتماعية، ونكشف الخطوط العريضة للتطور الحضاري والفكري.

اختراع الكتابة:

كان لاختراع الكتابة اثر كبير في حياة الشعوب فقد عرف العالم طرق مختلفة للكتابة اعتبرت نقطة البداية لمرحلة جديدة وانتقالها من المرحلة التصويرية إلى المقطعية ثم الأبجدية فالكتابة هي وسيلة هامة للتعبير عما ينطق به الإنسان.

وتعد الكتابة المسمارية من أقدم الكتابات المعروفة في الشرق الأدنى القديم، وكانت الحروف تكتب بواسطة مرقم إسفين على ألواح طينية تجفف تحت الشمس أو تفخر بعد ذلك، وطورت هذه الكتابة من قبل السومريين في نهاية الألفية الرابعة قبل الميلاد، في حين كانت في طريقها إلى أن تصبح خطية وصوتية باطراد، واستخدمت هذه الكتابة في كل الحضارات المجاورة كالأشورية والبابلية والأكدية.

قام رولنسن نيبور **Rawlinson (N)** باستنتاج نص كتابي هائل عليه ثلاث لغات في بهستون هو الذي قاد إلى فك طلاسم الخط المسماري والخط البابلي والفارسي في منتصف القرن 19 م، ومن ذلك الحين تم استنتاج وترجمة الآلاف من النصوص الكتابية الصخرية والألواح الطينية.

أما الكتابة الهيروغليفية التي ظهرت في مصر الفرعونية في نفس الفترة تقريبا فلم تكن ملائمة للكتابة السريعة، ولذلك نشأت طريقة مختصرة لأغراض علمية تعرف بالهيراطيقية وهي عبارة عن رموز بسيطة للرموز الهيروغليفية الأصيلة كتبت في بداية الأسرات الأولى وظلت مستعملة إلى نهاية الدولة الحديثة وكانت مناسبة للكتابة على البردي استخدمت لأغراض إدارية ودينية.